الهوامش والمصادر والمراجع

1- الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص75.

2 - الجاحظ: الحيوان، ج 1، ص32.

3- الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص77.

4 - الجاحظ: الحيوان، ج 1، ص44، 45، 46.

5 - الجاحظ: الحيوان، ج 1، ص213، 214.

6 - الراغب الاصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص196.

7 - الجاحظ: الحيوان، ج 1، ص45.

8 - أبو حاتم الرازي: "كتاب الزينة" في الكلمات الإسلامية، ج 1، ص61.

9 - الجاحظ: الحيوان، ج 1، ص153، 154.

10 - الأنباري محمد بن القاسم: كتاب الأضداد، ص07.

11 - نفس المرجع، ص 8/7.

12 - الأنباري أبو البركات كمال الدين، ج 2، ص811.

13 - الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص24.

14 - الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص9، 10.

15 - ابن منظور: لسان العرب، مادة: أنس، ج 7، ص307.

16 - أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة، ص15، دار الآفاق الجديدة - بيروت، دون تاريخ.

البناء الرّوحي والخلقي للإنسان في الشرائع السابقة وفي شريعة الإسلام

د/ إسماعيل يحي
رضوان عداربة
المعهد الوطني العالي للعلوم الإسلامية - باتنة -

تمهيد:

إن العصور والفترات التاريخية التي مرت في حياة الإنسان لم تكد تخلو من التشريعات الدينية التي كانت تواكب دعوات الأنبياء والرسل عليهم السلام، إلا أن هذه التشريعات الدينية لم تكن إلا بصفة لا تكاد تظهر فيها حتى تطمس أو تحوّر إلى غير ماهي عليه، وذلك لأن الإنسان متغيّر في مزاجه، وهذه التشريعات كانت ثابتة، فكان دائما يبحث عما يواكب مزاجه من التشريعات، ويحقق بها رغباته في الحصول على حاجاته، ولذا كان لابد من نظام ثابت تضبطه المقاييس المعتبرة من الناحية الروحية والخلقية.

مفهوم الرّوح والخلق:

وحتى نتعرّف على مفهوم الروح والخلق فإنه يلزمنا معرفة المعنى اللغوي والشرعي لكليهما، فالروح في اللغة: مابه حياة الأنفس، كما أن من معانى الروح: القرآن، وجبريل عليه السلام، وعيسى عليه السلام، [1] أما في الإصطلاح فهو أمر النبّوة وحكم الله [2] سبحانه وتعالى، وهذا ما يعول عليه، بمعنى أن يكون بناء الإنسان مرتبطا بفكر روحي، لأن سجايا الإنسان وطبائعه إذا تهذّبت بتعاليم الروح صارت هذه التعاليم سمة له وخلقا، ومن أجل ذلك فإن حياة الإنسان تعتمد على بنائه الروحي والخلقي معا، ولذا فإننا بصدد الدراسة في بحثنا هذا في بناء الإنسان روحيا وخلقيا، وما جاء في الشرائع من إرشادات وتعليمات لخدمة هذا الغرض.

حاجة الإنسان إلى نظام:

منذ أن استخلف الله سبحانه وتعالى آدم - عليه السلام - على الأرض وابن آدم تسيرّه حاجاته في هذه الحياة، تلك الحياة التي لا يستقر قرارها إلا بالحصول على المأكل والمشرب والملبس والمأوى، وقد أخذت هذه الحاجات أبعادا كبيرة للتنافس في الحصول عليها، فقد تفاعلت الأحداث المحيطة بها، وتمخّضت عنها صراعات قوية، تعددّت أشكالها، ذلك لأنها صراعات على البقاء، خاصة وأن المجتمعات الأولى للإنسان قد تكوّنت أول ما تكوّنت من الأسر، وكل أسرة يحكمها وليها، ثم انتقلت الحياة من حياة الأسر إلى حياة العشيرة، فانتقلت السلطة من رب الأسرة إلى رب العشيرة، [3] ولذا صار الإنسان مع هذه التغييرات الإجتماعية بحاجة إلى نظام.

بناء الإنسان الخلقي عبر التاريخ بنظام غير ثابت:

لقد تدرّج الإنسان في تشريعاته حسب تدرّج العصور، ولم يكتف بتدرّج العصور وإنما تدرّج الإنسان في اعتماده على مصادر تشريعاته التي وضعها لنفسه، واختلف الناس أيّما اختلاف في ذلك، فقال الفلاسفة منهم: بأن الجانب الخلقي عند الناس هو الأساس في وضع التشريعات البشرية، وقال بعضهم: بل إن المؤهلين لوضع هذه التشريعات هم رجال الفكر، وقال آخرون: بل إن الشعب هو مصدر التشريع، عن طريق اختيار الأمثل منهم بالإنتخاب، [4] ثم جاءت فكرة (العقد الإجتماعي) التي أسسها جون جاك روسو في هذا العصر، [5] وهو ما يشبه تعارف المجتمع على أعراف اتفق عليها لتسيير المؤسسات الحكمية.

أما الماركسيون فكانت أخلاقهم تصدر عن تصوّرهم لمعنى الإنسان والكون والحياة، ولذلك فلا اعتبار لأي أخلاق عندهم لا تتناسب مع مقولتهم: بالخبز وحده يحيا الإنسان، بغض النظر عن المعطيات الدينية، لأن الإنسان غير مخلّد، ولا يرتفع شأن الإنسان بحال عندهم إلا بزيادة الإنتاج، [6] كما أنهم ينسّقون ذلك مع معتقداتهم بأنه: لا إله والكل مادة، وأن الدين أفيون الشعوب.

أما الرأسماليون فقد كان الهدف الأسمى عندهم من حياة الإنسان وعمله هو أن يجمع المال، ثم يصنع المال مالا بغير توقف، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية، يجمع ويصنع عن أي طريق كان، ولو كان بالحرب والتخريب، لأن المهم هو تحقيق المال وتكديسه للتباهي والمضاهاة والتمتع. (7)

هذا هو الإنسان بخلقه في الغياب التشريعي والإرتباط الرّوحي، خلخلة واضطراب، وجنوح إلى اليسار أو اليمين، تسيّره في ذلك أهواؤه ونزواته.

بناء الإنسان الرّوحي والخلقي ضمن التشريع اليهودي والنصراني:

لقد استفاق العالم على إشارات تدعو لأمور أكثر ثباتا واستمرارية جاءت على ألسنة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى لإصلاح ما أفسد من عقائد الناس وأخلاقهم، ولم تكن دعوات الأنبياء في مجموعها دعوات شاملة لكل شؤون الحياة.

ثم أن كل هذه الإرهاصات الرّوحية ما تكاد تستقر حتى يشغب الفلاسفة والمغرورون بطرح بديل من جهتهم، فإما أن يفشلوا أو ينجحوا، وربما كان يساعد في ذلك ثقل سلطان الحكام، وقد أغرى ملوك الغرب الوصول إلى مهبط الديانات السماوية في الشرق، فلا عجب «أن يسلّموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها مادامت الأرض في أيديهم، يحكمونها كما يشاءون... ويجدون من يبايعهم عليها باسم السماء»، (8) وخاصة ما كان من تنزيل الدعوات ما يركز على النصائح والإرشادات دون التطرق لأنظمة الحكم.

وكان هذا يلحظ جيدا في تاريخ ملوك بني إسرائيل - وإن كانوا شرقيين - إذ أن الله سبحانه وتعالى قد جعل معظم ملوكهم المؤثرين في بناء دولتهم من الأنبياء، وما كان ذلك إلا ليكون أخذهم تعاليم دينهم عن طريق ملوكهم، أولئك الملوك الذين كانوا يقررون نظام السماء في الدنيا والدين عن طريق السلطات.

لكن اليهود لم يكن ليعجبهم شرع الله في فترات غياب السلطة الدينية، فراحوا يحرّفون الكلم عن مواضعه في كتابهم التوراة، فنكثوا العهود، وآذوا

أنبياء الله، وحرّفوا في التوراة، فبعث الله سبحانه وتعالى لهم سيدنا عيسى - عليه السلام - لتصحيح ما أفسدوا بأصل التوحيد، ويبشرهم بالنبي الرحمة الذي سوف يكون للعالمين كافة، وسوف يأتي من بعده، قال تعالى: «**وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين**».[9] ولكنهم مع ذلك لم يصدقوه فحقّت على مكذّبيهم اللعنة بغضب الله عليهم إلى يوم الدين.

طبيعة ما جاء في التشريعات السماوية:

هناك مبادئ عامة جاءت في هذه التشريعات ودعت إليها كل الديانات السماوية ومن أهمها:

1- **مبدأ التوحيد والانقياد إلى إرادة الله سبحانه وتعالى:** لقوله: «**شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم موسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه**»،[10] وقوله أقيموا الدين هنا بمعنى أصول التوحيد والعبادة في كل رسالة بعث بها رسول من عهد آدم - عليه السلام - إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: «**ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم**».[11] وهذا هو الجانب الرّوحي الذي نصّت عليه كل الرسالات السماوية بدون استثناء، سواء ما كان منها مؤقتاً أو دائماً، وسواء ما كان منها لقوم أم لعموم الأقوام، ولذا فإن التأثير الروحي كان بها بالإنقياد لقدرة الخالق وتعظيمه.

2- **الإرشاد والنصح لأمور الدنيا والآخرة:** فقد جاء منها الشيء الكثير في ثنايا الكتب السماوية، وصحف إبراهيم وموسى، وذلك بأن الإنسان لا يحمل وزر غيره، لأنه ليس له ولا عليه إلا ما سعى إليه، قال تعالى: «**أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى ألاّ تزر وازرة وزر أخرى،وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**».[12]

وقد جاء في صحف إبراهيم ما رواه أبو ذر - رضي الله عنه - أنه قال:

قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال عليه السلام: كانت أمثالا كلها: «... وعلى العاقل مالم يكن مغلوبا على عقله - أن يكون له ساعات:

فساعة يناجي فيها ربه.

وساعة يحاسب فيها نفسه.

وساعة يتفكر فيها في صنع الله عز وجل.

وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. (13)

ثم سأل أبو ذر - رضي الله عنه - عن صحف موسى - عليه السلام - فيما كانت؟ فقال عليه السلام: كانت عبراً كلها:

عجبت لمن أيقن بالموت، ثم هو يفرح.

عجبت لمن أيقن بالنار، ثم هو يضحك.

عجبت لمن أيقن بالقدر، ثم هو ينصب.

عجبت لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها، ثم هو يطمأن إليها.

عجبت لمن أيقن بالحساب غداً، ثم لا يعمل. (14)

3- **دعوة الكتب السماوية للصلاة والزكاة والصيام:** قال تعالى لموسى عليه السلام: «**فاعبدني وأقم الصلاة لذكري**»، كما جاءت الدعوة للصيام، قال تعالى آمراً المؤمنين بذلك مثلهم في ذلك مثل الذين من قبلهم: «**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**»، (15) أي أنه فرض عليكم الصيام كما فرضه على اليهود والنصارى من قبلكم، وإن كانت هذه العبادات بكيفيات مختلفة.

ولكن رغم هذه الدعوات العامة في الأصول الثابتة عند جميع الأنبياء إلا أنهم كانوا يفترقون في دعواتهم في بقية الفروع، وهذا بالإضافة إلى أن دعوة سيدنا محمد ﷺ برغم ما أنها تتفق مع رسالات الأنبياء أيضا في الأصول العامة إلا أنه تختلف عن رسالاتهم بأنها كانت رسالة للعالمين كافة.

تحريفات التشريع عند اليهود والنصارى:

هناك تحريفات كثيرة في تشريعات اليهود والنصارى عدا عن كونها جاءت مؤقّتة لأصحابها، والمراقب يلاحظ أنها لا تصلح للبناء الإنساني من ناحية الروح والخلق، ومن أبرز سلبياتها مايلي:

1- **تحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل:** أما اليهود فقد جاء خبرهم في التحريف بقوله تعالى: «**ومن الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه**»،[16] وأن التوراة التي نزلت على موسى - عليه السلام - غير موجودة أصلا.[17] وقد نسب محرّفوا التوراة إلى الله الحزن والأسف، فقد جاء في سفر التكوين: 6/6 «فحزن الرب أنه عمل الإنسان وتأسّف في قلبه»، ومما يدل على تحريفهم أيضا أنهم مسّوا شرف الأنبياء، وهذا يتنافى مع مالهم من عصمة ومكانة رفيعة وخلق متين، فقالوا عن إبراهيم: إنه كذاب، وأن لوطاً زنا بابنتيه، وهارون دعا الإسرائيليين إلى عبادة العجل، وداود زنا بزوجة إريا، وسليمان عبد الأصنام إرضاءً لوزجته،[18] وهذا أمر عجيب.

وقد أجاب على هذا التعجب الكاتب الفرنسي: موريس بوكاي فقال: «من هو مؤلف العهد القديم؟ كم من قارئ للعهد القديم يلقى عليه هذا السؤال فلا يجد جواباً إلا أنّه يردّد ما قرأه في مدخل التوراة بأن مؤلف هذه الكتب المقدسة كلها هو الله، مع أن الذين كتبوها هم بشر».

ثم أن الكاتب الفرنسي موريس بوكاي سيطرد في مكان آخر في هذا الموضوع عن الإنجيل ويتساءل بقوله: «وإذ لم يكن بالإمكان اعتبار الأناجيل الأربعة موضوع البحث كمذكرات للرسل أو لصحابة المسيح فما هو أصلها إذن؟»،[19] فهو هنا ينفي أنها للمسيح ولا لصحابته إذن من الذين كتبوها؟.

على أن الإنجيل قد ظهرت له كتابات في فترات السنين مابين 70 ميلادية إلى 110 ميلادية، ظهرت في هذه الفترة الأناجيل الأربعة: مرقش، ومتّى، ولوقا، ويوحنا، ويقول بأنها لا تمثل الوثائق الثابتة الأولى

للمسيحية.[20] وقال الداعية أحمد ديدات: «أما النصارى فقد صرّفوا كتابهم الإنجيل، لأن المسيح لم يكتب، ولم يُمل أي إنجيل، وقد كتبه من بعده أتباعه، وكل حكى الحكاية، أو روى الرواية من جهة نظره، ومن هنا كان اختلاف الأناجيل»، [21] فاليهود والنصارى قد صرّفوا التوراة والإنجيل، وطالبهم رب العزة بأن يظهر والحق فيما كتبوه من التوراة والإنجيل، وإلا فهم ليسوا على شيء منه قال تعالى: «**قال يا أهل الكتاب لستم على شيء وحتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم**». [22]

2- **إشراك اليهود والنصارى في عقيدة التوحيد:** التي هي أساس رسالات السماء دائما، وأن العبودية لله الواحد القهّار، أما اليهود فقد أشركوا بجعلهم العزير ابن الله، وأما النصارى فقد جعلوا المسيح ابن الله أيضاً، قال تعالى: «**وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله**»، [23] وحاشا لله أن يكون له ولد، لأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

3- **تضمين تشريعات اليهود نهجاً عنصرياً في التعصب:** لا يتناسب مع رسالات السماء، فمن مظاهر تعصّبهم في شرائعهم: أن الإسرائيليين محرّم عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً، وأن يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، على حين أنه مباح للإسرائيليين بل واجب عليهم غزو الشعوب، وخاصة شعب كنعان. [24]

وواجب على الإسرائيليين بعد انتصارهم على بلدما أن: يضربوا رقاب جميع رجالها البالغين بحد السيف، فلا يبقوا على أحد منهم، ويسترقّوا جميع نسائها وأطفالها، ويستولوا على جميع مافيها من مال وعقار متاع، أو ينهبوه حسب تعبير أسفارهم، كما جاء في فترتي: 13، 14 من إصحاح/20 من سفر التثنية. [25]

4- **انحراف اليهود عن محاسن الأخلاق واتصافهم بالحقد في بعض المواقف:** ومن مظاهر انحراف أخلاق اليهود في التشريع: «أن الولد إذا مات أبوه لا يعاقب إذا زنى بأمه الأرملة، بل يجب عليه أن يبقى على هذه العلاقة

حتى بعد زواجه، كما أن الوالد إذا زنا بابنته بعد وفاة أمها لا يعاقب، ولا يزجر لأنه بذلك يحفظ أمواله من الضياع على العاهرات، ويدرّب ابنته على الحياة الزوجية». (26)

أما النصارى فقد كانت دعوة سيدنا عيسى هي الرحمة والمحبة فحوّلوها إلى حب المال والجشع، وامتصاص تروات الشعوب، والتخريب باسم المسيح، سواء كان ذلك في الحرب أم في السلم، وقد ترجموا ذلك في تعصّبهم الأعمى الذي لم يسبق له نظير حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم في الحروب الصّليبية: «فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت، ويجعلونهم طعاماً للنار، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق السّاحات حيث يقتلونهم فوق جثث الآدميين، وقد دام الذبح في المسلمين أسبوعاً حتى قتل منهم على ما اتفق في رواية مؤرّخي الغرب والشرق سبعين ألفا». (27)

ويحدثنا التاريخ بأن ريتشارد الملك الإنكليزي الصليبي الملقب بقلب الأسد قد ذبح ألفين وسبعمائية من أسرى المسلمين، وقتلهم على رأس تل في عكا... وبقر بطون المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب، ورغبة في الإنتفاع بمرائرهم لتيخذوها دواءً يستشفون به. (28)

كل هذه التناقضات الروحية والخلقية التي سيطرت على الناس في عهود اليهود والنصارى، وأثرت في بنائهم الإنساني والروحي والخلقي، ثم في نظامهم ونظرتهم للأشياء تدل على أن الإنسان لم ينجح في فكره ولا في تنظيمه، فكان لابد من توجيه مؤثر يحفظ للإنسانية قيمتها الروحية والخلقية، بعيدا عن التعصّب والاحتكار، ولم يكن هذا إلا في دعوة خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين كافة.

البناء الروحي والخلقي في الشريعة الإسلامية:

لقد تتبعنا الشرائع السابقة، ووجدنا اليهود قد أعمتهم العنصرية في بناء الروح والخلق في نفس الإنسان، كما أن الصليبيين النصارى، قد أعماهم

حب الغطرسة والسطو على حبهم للمسيح وتعاليمه فأساءوا في عملية البناء الروحي والخلقي للإنسان.

أما البناء الروحي والخلقي في الشريعة الإسلامية فإنه يبدأ بالتهيئة التي رسمتها الشريعة للإنسان في جميع مراحل حياته، وليس هذا فحسب، بل إن الشريعة رسمت للإنسان نهجاً قبل مجيئه إلى هذه الدنيا، ومن ذلك أنها أشارت إلى الخطوات التي يجب على أبي الطفل أن يتبعها قبل أن يولد له ولد، ثم رسمت الخطوات التي يجب أن تراعى في بناء طفله وهو نطفة في الرحم، ثم رسمت الخطوات اللازمة لهذا الكائن الحي بعد الولادة، ثم رسمت الخطوات الواجب اتباعها لهذا المولود منذ طفولته حتى سن البلوغ، وبعد ذلك بيّنت الشريعة الإسلامية مهمة التكليف التي تواكب سن البلوغ وبعده، ثم واكبته في هذا السّن في عملية واسعة من التعليم والتدريب والممارسة الحقيقية بما يرضي الله سبحانه وتعالى ليكون لبنة صالحة في مجتمع يأتمر بأوامر الله وينتهي بنواهيه.

وفيما يلي يمكننا أن نتلمس الخطوات اللازمة التي رسمتها الشريعة للرعاية الحقيقية لحياة الإنسان وبنائه الروحي والخلقي:

أولا - رعاية الشريعة الإسلامية للإنسان قبل أن يولد:

وتتمثل هذه الرعاية في حض الإنسان المسلم على أن يتبع الخطوات الشرعية اللازمة قبل أن يلد له طفل، وما ذلك إلا لأن المسؤولية التي ألقتها الشريعة على كاهل والد الطفل قبل أن يلد له هذا الطفل مسؤولية واعدة وحقيقية، ومن ذلك فإن الإسلام جعل لوالد الطفل وسيلة واحدة لإنجاب هذا الطفل، وهذه الوسيلة الوحيدة هي الزواج الشرعي الذي يضمن فيما بعد حق الزوج وحق الزوجة وحق الطفل.

على أن الزواج يحتاج قبل كل شيء إلى إمكانات للنفقة على هذا الطفل وعلى أمّه من كل مسوّغات الحياة الكريمة، من مأكل وملبس ومأوى، ولذا فإن

الشريعة طلبت من المسلم أن يبادر إلى ذلك إذا كان قادراً، وإلا فلا يفعل، لأنه إذا لم يكن قادراً فسوف يعرّض الأم وطفلها للضياع، وقد جاء في هذا المعنى قوله ﷺ : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»، [29] وهو حديث متفق عليه، رواه عبد الله بن مسعود.

ومن رعاية الشريعة للإنسان قبل أن يولد أنها جاءت تحثّ الرجل لأن يتخيّر لابنه الأم الصالحة، وقبل كل شيء ويسأل عن أخوال من سيكون طفلاً لابنتهم، لأن الولد غالباً ما يأخذ الصفات من أخواله سواء ما كان من جده أو من أخواله لما جاء في الأثر في الحديث الشريف: «تخيّروا لنطفكم، وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم»، [30] ومعنى الأكفاء عند المالكية هم الأكفاء في الدين، وفي لفظ عن أنس «تزوّجوا في الحجز الصالح فإن العرق دسّاس»، وفي تخيّر أم الطفل قبل مجيء الطفل نفسه تحوّطٌ وتهيئة لنجابة الولد قبل مجيئه، وفي رواية أخرى فإن سبب تخيّر الأم هو أن الطفل غالباً ما يأتي مثل أهل أمه، وقد جاء في رواية أخرى: «تكاد المرأة أن تلد أباها أو أخاها». [31]

هذه هي الرعاية الحقيقية للولد قبل أن يولد، وهي عبارة عن تخيّر أهل المرأة أولاً، أما ثانياً فهو من البَدَهي أن توصي الشريعة باختيار الأم نفسها، على أن تكون فيها صفات الزوجة الصالحة القادرة على تربية طفلها التربية الصالحة، فأوصت الشريعة الرجل أن يختار صاحبة الدين لقول رسول الله ﷺ «تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»، [32] لأن الدين هو الصفة الدائمة العادلة لصالح الرجل والمرأة والأطفال،

ثانياً- رعاية الشريعة للإنسان وهو نطفة:

لقد راعى الإسلام المرأة في هذه المرحلة، حفاظاً عليها وهي حامل، وحفاظاً عليها وهي مرضع، ولما كانت المسألة متعلقة بالجنين وهي حامل، وبالرضاعة وهي مرضع، فقد خفف الله سبحانه عليها التكليف وأجاز لها أن تفطر في رمضان، وأجاز لها أن تكون من فئة الذين لا يطيقونه كالشيخ والشيخة وصاحب المرض

المزمن، ولا تجب على هؤلاء الإعادة في أيام أخر، وذلك لقوله تعالى: «**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**»، [33] وليس على الذين يطيقونه صيام في عدة أيام أخر، ولكنها فدية طعام مسكين عن كل يوم أفطر فيه من أيام رمضان، قال الماوردي في تفسيره (النكت والعيون): «هكذا قرأ أكثر القراء، وقرأ ابن عباس ومجاهد: (وعلى الذين لا يطيقونه) وتأويلها: وعلى الذين يكلفونه، فلا يقدرون على صيامه لعجزهم عنه كالشيخ والشيخة والحامل والمرضع فدية طعام مسكين، ولا قضاء عليهم لعجزهم عنه». [34]

كما أن رعاية الشريعة للطفل في هذه المرحلة تكون في أن تكفل له حق النفقة في حالة طلاق أمه، قال تعالى: «**أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهنّ وإن كنّ أولات حملٍ فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن وضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن**». [35]

ثالثا- رعاية الشريعة الروحية والخلقية للإنسان بعد الولادة:

ومن مظاهر اهتمام الشارع بالجنين وهو في بطن أمه ننتقل الآن إلى مظاهر اهتمامه بهذا الجنين بعد ولادته، فكما كفل له النفقة والغذاء وهو جنين كفل له النفقة والغذاء والحياة بالرضاعة في فترة الرضاعة.

وتحّدثنا كتب السيرة وكتب الصحاح عن الغامدية التي اقترفت حد الرجم فجاءت رسول الله ﷺ لتتطهّر من ذنبها بالرجم ولكنها حامل، فلم يرجمها رسول الله ﷺ، وذلك حفاظاً على الجنين، ولما وضعت مولودها جاءت إلى رسول الله ﷺ، وطلبت منه أن يقيم عليها الحد فأرجأها رسول الله ﷺ حتى تفطم رضيعها، ولكنّها ألحّت عليه، فلم يقبل رسول الله ﷺ أن يستجيب دعوتها في أن يقيم عليها الحد إلا بعد أن تكفّل أحد الصحابة بتربية طفلها بعد موتها، وما كانت كل هذه الإرجاءات إلا لمصلحة الطفل في الحياة. [36]

فالشريعة التي ترعى الإنسان بالقيمة الحياتية لاشك في أنها حريصة على رعاية القيمة الروحية والخلقية لهذا الإنسان، ولأن تخطط للحفاظ على

تنشئته النشأة الصالحة، لأن الطفل إذا لم تتوفر له الرعاية التامة فلا يمكن أن تجدي فيه الرعاية الروحية والخلقية.

ولما أرسل أبو بكر السرايا لفتح بلاد الشام أوصى الجيوش بأن لا يقتلوا طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً، وأن يرحموا عباد الله الضعفاء، وذلك لقول رسول الله ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، [37] فالطفل في هذه المرحلة يحتاج إلى الرعاية والعطف والرحمة.

رابعا - رعاية الشريعة للإنسان من سن السابعة إلى سن التكليف:

إن هذه المرحلة هي المرحلة الهامة في البناء الروحي والخلقي للإنسان، ولذا فإن المربين في المؤسسات التربوية يحتاطون لتأسيس الولد في هذه المرحلة التي يراد للولد فيها أن يكون إنساناً صالحاً في المجتمع، ولذا يكون التخطيط لهذه المرحلة في الغالب أكثر من المراحل الأخرى، وكل تخطيط تربوي يعتمد في برامجه أكثر ما يعتمد ما يناسب المعتقدات والأعراف والعادات لكل مجتمع.

أما في الإسلام فإنه يركّز في برامجه التربوية على الناحية الروحية والخلقية في هذا السن، تم يهيّأ الولد بتركيز المعتقدات الدينية الأساسية في نفسه، ثم يطعّم بآداب الإسلام وأخلاقه، وذلك في علاقاته بمن هو أكبر منه وبمعلميه.

وقد ندب الإسلام بالنسبة للود أن يروّض جسمه بالسباحة والفروسية، ولا يعطى من العلم ماهو فوق مستواه العقلي، كعلم الكلام والجدل، ولقد أرشدنا الشارع إلى الخطوات التي يجب أن تتّبع في التدرّج للوصول إلى هذا المفهوم، فأمر بمخاطبة الناس على قدر عقولهم، لما روي عن ابن مسعود قال: «ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»، [38] والطفل في هذه المرحلة من القوم الذين يجب أن لا يتعلّم شيئا لا يبلغه عقله، بل يجب أن يتدرج معه للوصول إلى العلم المناسب.

قال ابن خلدون: «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرّج شيئا فشيئا وقليلاً قليلاً، يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرّب له شرحها على سبيل الإجمال». (39)

أما ماذا يتعلم الطفل في هذه المرحلة؟ فهناك برامج تربوية ندب إليها الشارع تضمن له صحة العقيدة وصحة النفس وصحة الجسد وصحة السلوك وصحة الأخلاق، ثم أن من جوامع ما يندب إليه في تعليم الطفل في هذه المرحلة مايلي:

1- **تأصيل الأثر الروحي في نفسه:** وهو أن يدرك بأن كل شيء وفي هذا الوجود من بديع صنع الله سبحانه وتعالى، وحتى لا يغيب عنه هذا الفهم يجب أن يردّد ذكر الله على لسانه، فإذا فعل ذلك ذكره الله وأحبه، ولذا فإن أول ما يفتح على الطفل ترديد عبارة التوحيد، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الحاكم عن عبد الله بن عباس: «افتحوا على صبيانكم أول كلمة بلا إله إلا الله».

2- **تأصيل السلامة في النّمو الجسدي والترويض الصحي:** حيث يعلم الطفل في هذه السن أن يغسل يديه قبل الطعام، وأن يجلس أمام المائدة منتظراً من هو أكبر منه ليبدأ بالطعام بالبسملة، وأن يأكل من أمامه، وأن لا يستعجل، ثم يحمد الله إذا شبع، ثم يغسل يديه. كما يعلّم من العادات الصحية، وعدم العبث بالأشياء الفضولية حفاظاً على نفسه من الحوادث، كما أنه على الآباء أن يدرّبوا صبيانهم على السباحة والفروسية لأن هذه الأشياء إذا تأسست عندهم تنفعهم في مستقبل أيامهم، قال رسول الله ﷺ: «علموا بنيكم السباحة والرمي». (40)

3- **تأصيل العلم بالعبادات عند الطفل والتدريب عليها:** وخاصة في الصلاة والصوم، لأن الطفل في هذه السن يخضع لإرادة والديه في توجيهاتهم، سواء ما كان منها للخير أم الشر، قال الغزالي: «فإن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر معاً، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين»، (41) وقد أشار

رسول الله ﷺ إلى هذا في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه»، ولذا فقد ندب الإسلام إلى والد الطفل أن يدرّبه على الوضوء والصلاة وآداب دخول المسجد، وعليه أن يتابع ولده في ذلك منذ سن السابعة وحتى العاشرة، فإن لم يفعل في العاشرة عاقبه بالضرب لقول رسول الله ﷺ: «علموا الصبي الصلاة لسبع سنين، واضربوه عليها ابن عشر سنين». (42)

4- تأصيل ضرورات العلم ومفاتحه وآدابه عند الطفل وما يلزمه لبناء شخصيته الروحية والخلقية: ولننظر في ذلك كيف نصح بعض الأكابر معلم ولده حين قال له: «ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت، علّمهم كتاب الله، ولا تملّهم فيه فيتركوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، وروّ من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفّه، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم، وعلّمهم سنن الحكماء، وجنّبهم محادثة النساء، ولا تتكل على عذر مني، فقد اتكلت على كفاية منك». (43)

5- تأصيل ارتباط العلم بالخلق والعمل عند الطفل: فإذا علم الطفل حكماً في القرآن أو السنة مثلا كان من الواجب أن يعمل به، وإن كان خلقاً أن يتخلّق به، فلو قرأ قوله تعالى في السخرية من الغير: «**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن**» (44) حفظ هذه الآية، وعلم تفسيرها، وعمل بها، ثم على المعلم أن يراقب تلاميذه عندما يعلمهم نصاً خلقياً، وذلك بالدعوة لمثل ما جاء به النص من خلق وتعميمه في السلوكات اليومية للأطفال، فإذا وجد خروجاً على ذلك نبهه تلاميذه إليه، وشحنهم مرة أخرى لأن الفائدة الحقيقية في العلم هي أن يقترن بالعمل وإلا صار نفاقاً ومقتاً لقوله تعالى: «**كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**». (45)

خامسا - رعاية الشريعة للإنسان بعد بلوغه سن التكليف:

وفي هذه المرحلة يبدأ التطبيق العملي للممارسة الحقيقية لما تأسس عليه الطفل في المرحلة السابقة، حيث أن الطفل قد كبر وأصبح قادراً على تطبيق ما تعلّمه وما يكلف به من الشارع، ويمكن أن تتحقق فيه مقاصد الشارع والضرورات الخمس.

ففي ضرورة الدين يمكن أن يكلف بإقامة أركان الإسلام وأركان الإيمان، كما يمكن أن يكلف بالجهاد، حيث كان رسول الله ﷺ عندما يستعرض أفراد جيش قبل الخروج للجهاد يخرج منه غير البالغين، فإذا اختطّ شاربه كانت علامته البلوغ،فيسمح له بالجهاد،وإذا ارتد البالغ يقام عليه الحد بعد استتابته.

أما في ضرورة العقل فيمكن أن يؤاخذ البالغ في تصرّفاته إذا جنح عن الحق، لأن المؤاخذة ترفع عن الطفل إذا كان دون سن البلوغ.

وأما في ضرورة النفس فإن البالغ يقتل إذا قتل نفساً، ثم يجب عليه أن يحافظ على نفسه وأن لا يعرّضها للهلاك كما يجب أن يحترم حق النفس في الحياة، ولا يجوز له إزهاقها إلا بحقّها، وخاصة نفس المؤمن لأنها أعظم عند الله حرمة من الكعبة.

وأما في ضرورة النسل فإن تكليفه في هذه السّن يجيز له أن ينكح بدون ولي، وأن يكون ولياً لناكح، ويمكن أن يقام عليه الحد إذا ارتكب جريمة الزنا.

وأما ضرورة المال فقد أجاز له الشارع كل التصرّفات المالية من بيع وشراء ووكالة وهبة والبيع والشراء، وأن يتحلل من الوصاية على ماله إذا كان يتيماً، وأن تقام عليه حدود السرقة لأنه أصبح راشداً، والمفروض فيه أن يتجنّب الجرائم حتى يتجنّب هذه الحدود، كما يكلف في هذه السّن الزكاة عن أمواله.

على أننا في نهاية هذه المراحل نجد أن الإسلام قد اعتنى ببناء الإنسان الروحي والخلقي من قبل أن يولد، واعتنى بما يلزم له خلال مراحل الحمل

والطفولة المبكرة ومرحلة الطفولة المتأخرة، ثم مرحلة البلوغ والتكليف حتى صار رجلاً إلى أن انتهى به العمر إلى الشيخوخة فأوصى به أبناءه فقال تعالى: «**ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون**». (46)

ولم يكتف الإسلام في رعايته لهذا البناء الروحي والخلقي في جميع هذه المراحل حتى وصل بالطفل إلى مرحلة الإنتاج المستمر في حياته العملية، بل إن الإسلام لم يترك العناية به حتى شيّعه إلى متواه الأخير في حفل مهيب، وجعل له حقاً على أهله ومعارفه وغيرهم أن يمشوا في جنازته، وطلب منهم الترّحم عليه، وبشّره بالسعادة الأبدية إذا اختتم حياته بما بدأها فيه، بالنطق بكلمة التوحيد، بقول لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لقوله عليه السلام: «مامن نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله - يرجع ذلك إلى قلب مؤمن - إلا غفر الله لها». (47)

وفي ختام هذا البحث فإننا نستخلص بأن جميع الشرائع الوضعية والسماوية السابقة قد خطط أصحابها لبناء الإنسان روحياً وخلقياً، أملاً منهم في إعمار هذا الكون، إلا أن هذه النظم الوضعية وفلاسفتها قد فشلوا في هذا الميدان، لأن شرائعهم كانت نابعة من أمزجتهم المتغيّرة.

وهذا ما انتهت إليه الشرائع السماوية السابقة من يهودية ونصرانية أيضا، إذ برغم أن هذه الشرائع السماوية تتفق في الأصول العامة إلا أن ما اعترى هذه الأصول من تحريف من قبل أتباع هذه الشرائع جعل هذه الشرائع غير صالحة للبناء الروحي والخلقي، فكان لابد من وجود نظام ثابت ودائم للعالمين كافة، وهو السبب الذي جاءت من أجله الرسالة المحمدية، إذ أن الله سبحانه وتعالى بعث رسولنا محمداً هادياً ومبشراً ورحمة للعالمين، قال تعالى: «**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**». (48) فكانت خير نظام يحفظ البناء الإنساني روحاً وخلقاً، وخير دعوة للحق تحتاجها البشرية في كل أطوارها وأزمانها الماضية والحاضرة والقادمة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الهوامش والمصادر والمراجع

1- الفيروز آبادي القاموس المحيط - مطبعة مصطفى الباي الحلبي - مصر، 1952م: 231/1.وانظر:مختار الصحاح للرازي (ص 261) - دار ابن كثير- بيروت، 1985م.

2 - الفيروز ابادي - المصدر السابق: 231/1.

3 - د/ عبد الله سليمان - شرح قانون العقوبات الجزائري - القسم العام - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر (د.ت) ص 21، 23.

4 - محمد جواد مغنية - الإسلام بنظرة عصرية - دار العلم للملايين - بيروت، ط 2، 1978م، ص122.

5 - جون جاك روسو - تاريخ الفكر السياسي، ترجمة الدكتور/ محمد عرب، ص 491.

6 - الإسلام بنظرة عصرية، ص29.

7 - الإسلام بنظرة عصرية، ص29.

8 - عباس محمود العقاد، عبقرية المسيح - دار نهضة مصر - القاهرة، ص37.

9 - سورة الصف - الآية: 6.

10 - سورة الشورى - الآية: 13.

11 - سورة النحل - الاية: 123.

12 - سورة النجم - الآيات: 36، 37، 38، 39.

13 - سيد سابق - العقائد الإسلامية - دار الكتاب العربي - بيروت (د.ت)، ص161.

14 - المصدر السابق نفسه.

15 - سورة البقرة - الآية: 183.

16 - سورة النساء - الآية: 46.

17 - العقائد الإسلامية، مصدر سابق: 166.

18 - المصدر السابق نفسه، ص167.

19 - موريس بوكاي - التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - تعريب نخبة من الدعاة - دار الكندي - لبنان، ط2، عام 1978م، ص60.

20 - المصدر السابق، ص57.

21 - أحمد ديدات - مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء - ترجمة: علي الجوهري - دار الإعتصام - القاهرة، 1989م، ص189، 190.

22 - سورة المائدة - الآية: 68.

23 - سورة التوبة - الآية: 30.

24 - وهذا ما يجده الإنسان من أعمالهم في فلسطين والشعب الفلسطيني وفي شعوب كنعان من بلاد الشام.

25 - د/ علي عبد الواحد وافي - اليهودية واليهود - نهضة مصر، ص53.
26 - عمر فتحي زاده - مقال بعنوان (صفحات مؤلمة من تاريخ البلقان) نشر في مجلة الإعتصام في عدد فبراير عام 1965م - القاهرة.
27 - أنور الجندي - الإسلام وحركة التاريخ - دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط 1، عام 1980م، ص209.
28 - المصدر السابق، ص210، 211.
29 - محمد الكحلاني الصنعاني - سبل السلام - مكتبة الرسالة الحديثة(د.ت)، 109/3.
30 - شمس الدسن أبو الخير - المقاصد الحسنة - دار الهجرة - بيروت، 1986م، ص155.
31 - المصدر السابق نفسه.
32 - المقاصد الحسنة، مصدر سابق، ص165.
33 - سورة البقرة - الآية: 184.
34 - الماوردي - النكت والعيون - حققه خضر محمد خضر - مطابع مقهوي - الكويت، ط1، عام 1982، 199/1.
35 - سورة الطلاق - الآية: 6.
36 - سبل السلام، مصدر سابق، 11/4.
37 - رواه الترمذي وقال عنه: حديث حسن صحيح المقاصدر الحسنة، 48.
38 - رواه مسلم، انظر المقاصد الحسنة، مصدر سابق، ص93.
39 - د/ محمد ناصر - الفكر التربوي العربي الإسلامي - الكويت - وكالة المطبوعات، 1977م، 473/1.
40 - أخرجه الديلمي من حديث بكر بن عبد الله بن الربيع الأنصاري مرفوعاً، انظر المقاصد الحسنة، مصدر سابق، ص289.
41 - الغزالي أبو حامد - إحياء علوم الدين - دار المعرفة - بيروت (د.ت)، 92/2.
42 - حديث حسن، رواه أبو داود والترمذي، انظر النووي - رياض الصالحين - تقديم محمد علي القطب - المكتبة العصرية، 1990م، ص128.
43 - د/ محمد عز الدين توفيق - (العلاقة بين العلم والخلق في الفكر التربوي الإسلامي) - تصدر عن المنتدى الإسلامي - لندن - العدد: 89 يونية 1995.
44 - سورة الحجرات - الآية: 11.
45 - سورة الصف - الآية: 3.
46 - سورة العنكبوت - الآية: 8.
47 - أخرجه ابن ماجة وابن حبان وأحمد، وصححه الشيخ الألباني في - سلسلة الأحاديث الصحيحة - مكتبة المعارف - الرياض، ط1، 1979م، 347/5.
48 - سورة الأنبياء - الآية: 107.

بناء الإنسان عقديا من خلال القرآن الكريم

أ/ عمار طسطاس
معهد أصول الدين ـ جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة

تمهيد :

إن مهمة بناء الانسان عقديا قضية تتقدم سائر عمليات صياغة شخصية الفرد المسلم في القرآن الكريم.

إذا العقيدة هي «ربط نظري عملي بين الجسد والروح عن وعي فكري عميق...». (1)

ومن ثم فالعقيدة هي الأساس الفكري الذي يقوم عليه بناء الشخصية المسلمة في ابعادها العقلية والنفسية والعملية وانعكاس ذلك على عطاءاتها الحضارية، في ميادين المعرفة والعلوم والفنون والعمران.

وتشتمل المنظومة العقيدية الاسلامية في القرآن على نظرة عامة الى الوجود. تتعلق بالكون والانسان والحياة، وعلاقة كل منهما بالله- جل وعلا- الذي خلق الكون والانسان والحياة وحدد علاقة الكون والحياة بالانسان، وبين مركز الانسان ومكانته في الوجود، ووظيفته في هذه الحياة، ومصيره فيما بعدها. (2)

وقد أدرك حقيقة هذا التصور الجيل الذي أخرجه النبي صلى الله عليه وسلم على عينيه في غالبية عناصره وأفراده.

فأدرك حقائقه بعقله، وتشر به في نفسه حيث، أخرج نماذج رائعة من خامات الجاهلية تحمل للإنسانية آخر رسالات السماء تنشرها في ربوع أقطار الأرض، بيانا للحق، وحملا على العدل، وتوسيعا للآفاق، وتحريرا الانسان.